



هل كان السبب في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته هو الفرار من الظلم والفتن؟ سؤال يستدعي وعيًّا قبل الإجابة عليه؛ لأنَّ هاهنا منطقة غامضة وخطيرة، فمن حيث المبدأ: لا إنكار على من هاجر من بلد إلى آخر فراراً بيته من الفتنة أو بنفسه وعرضه من الظلم والطغيان؛ فالعيش الآمن والحياة السالمة من البطش والإرهاب حقٌّ من حقوق الأدميين؛ لذلك جاءت الآية الكريمة من سورة النساء على نحو يؤكد أنَّ الأرض ميدان لتنقل الإنسان تتسع له ولا تضيق عليه: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا كُنْتُمْ فِيْمَا كُنْتُمْ مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا أُهْمِمُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (النساء 97)، كما جاءت الآية من سورة التوبة على نحو يجعل من حق المستجير السالم من التورط في المحاربة أن يبلغ من الأرض مأمنه: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرِهِ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ) (التوبه 6)؛ ومن ثمَّ فلا تثريب على من كان هدفه من الهجرة البحث عن مأمن؛ إذ لا مؤاخذة على من يمارس حقَّه الشرعي، لكن التثريب والتأنيب والعتب والمؤاخذة يكون على تفريط سنائي للحديث عنه بعد جولة قصيرة.

لا ريب أنَّ الفرار بالدين من الفتنة والفرار بالنفس والعرض من الظلم، والتماس موطن آمن للعباد ليعبدوا فيه ربهم آمنين على أنفسهم من عدو يضيق عليهم أو يمنعهم؛ لا ريب أنَّ كل هذه الأهداف والغايات كانت مستصحبة في كل هجرة قام بها الصحابة مع رسول الله أو بدونه، بل إنَّها كانت كذلك في كل هجرة هاجرهانبيٌّ أو أتباعنبيٍّ، ومن أظهر الأمثلة على ذلك هجرة إبراهيم عليه السلام والحنفاء.

لكن الذي لا ريب فيه أيضًا هو أنَّ هذه الغايات كانت تالية للغاية الأُمّ وتابعة لها، وأنَّ الغاية الأُمّ من الهجرة هي التمكين لدين الله عزَّ وجلَّ؛ بالدعوة والبيان ثم بالدولة والسنن، تلك هي الغاية الحقيقة والمحورية، وقد كان كل واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قادرًا على الاعتصام بسيفه والالتزام بأرضه ووطنه، كان كل واحد منهم يحمل من النخوة والألفة ما يحمله على أن يجرد سيفه فلا يضعه حتى يقضى الله بينه وبين من رام إخراجه من بلده، فلم يدفعهم إلى الهجرة

إلى الحبشه أولا ثم إلى يثرب ثانيا ضعف عن المقاومة، ولا زهد في الوطن والدار، وإنما كانوا أصحاب قضية كبيرة ورسالة عظيمة؛ هي التي دفعتهم لأن يتجشموا عناء الهجرة وألام مفارقة الأوطان.

ومما يؤكد هذا المعنى أن الذين هاجروا إلى الحبشه لم يكونوا جمِيعاً من الضعفاء المغلوبين، وإنما كان فيهم أشراف نبلاء من لهم في بلادهم منزلة وجاه ولهم بقومهم مَنْعَةٌ وعز، من أمثال عثمان ابن عفان وعمر بن أبي طالب وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وغيرهم من لا يجرؤ أحد على أن يمد لهم يداً أو ينالهم بأذى؛ ومن الأدلة على ذلك أيضاً إن الهجرة إلى المدينة كانت واجبة، إلى حد أنه لم يكن يُقبل من أحدٍ لم يهاجر وهو قادر على الهجرة عهداً ولا ميثاقاً: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَائِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا) (الأفال 72).

إن الهجرة في سبيل الله التي يُنال بها أجر وفضل الهجرة، هي التي تكون أداءً لواجب لا مجرد ممارسة لحق، هي التي تكون للتمكين لدين الله وليس للتنزه والتلوّس في الحياة، هذه هي الهجرة التي تكون مرايحاً واسعة ويعُقَّ أجر المهاجر فيها على الله: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) (النساء 100)، فهل يكون مُفْرِطاً من خرج من بلده مهاجراً بسبب الظلم الواقع عليه، حتى ولو كان سبب الظلم أنه متمسك بدينه ملتزم بتعاليمه غير موالي لأعداء دينه؛ وهذا سؤال يدخلنا إلى الجوهر.

إن المسلم المهاجر بسبب ما يقع عليه من ظلم مأجور، وإن لم ينو بهجرته إلا النجاة بنفسه والفرار بحريته؛ مأجور إذا احتسب، مأجور على المصاب الذي حل به، لكنه لا ينال أجر المهاجر في سبيل الله ولا فضيلة الهجرة حتى يجدد نيته، وحتى يتبنى من المواقف والأقوال والأفعال ما يعلي من شأن الدين ويصب في النفع العام للمسلمين، فإن الله تعالى رؤوف رحيم وود كريم، لا يحرم عبداً استفزه سوط الطغيان ففر بنفسه، فلما استقر به المقام استدعي قضيته واستحضر نيته وبدأ يتحرك ويعمل.

فموسى عليه السلام عندما خرج كانت غايتها النجاة من الظالمين: (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّيْ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (القصص 21) فلما تحققت نجاته تحركت حاجته للهداية في تيه الصحراء الموحشة: (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدِينَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ) (القصص 22) فلما بلغ المأمن تحركت حاجته للرزق في غربته: (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّ إِلَى الظَّلَلِ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) (القصص 24) فأفاض الله عليه من النعم حتى صار له بيت وزوجة وأنعام، لكنه لم ينس قضيته، فما إن قضى الأجل الذي عليه حتى تحركت في نفسه الرغبة في الرجوع إلى مصر؛ حيث قومه من بني إسرائيل يعانون الخسق والهوان، فامتنى ناصية الطريق النافذ عبر سيناء؛ قاصداً مصر، وهنا استحق شرف الرسالة، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فجاءه الوحي في الوادي المقدس طوى.

فمن سعد بهذه النعمة وهذا الخير ظهرت عليه علامات لا يملك إخفاءها، ومن اعتالته شهوات نفسه وغلبت عليه هموم دنياه طفحت على ظاهره خصال لا يملك إخفاءها أيضاً، فأسأل نفسك أيها المهاجر: هل أنت تفك في قضايا أمتك وبلدك أم يستحوز على تفكيرك هم العيش والسكن والاستيطان وغير ذلك؟ هل أنت تدعوا لنفسك وأهلك فقط أم تجعل لدينك وأمتك والمظلومين في بلدك نصباً من دعائك؟ هل أنت نزاع للوحدة والألفة والتواصل أم للشقاق والخلاف والتهاوش؟ هل لديك خطة ومشروع ورؤية أم إنك تمضي على هوى من يسيرونك؟ هل تعمل ما تستطيعه أم إنك مستسلم لليلأس تلقي اللوم على غيرك.

إن وجود جماعات من الناس من أجناس مختلفة في مهجر كريم بتركيا الحبيبة فرصة عظيمة للتواصل، وللاندماج في

الشعب التركي الكريم، فهل نحن قادرون على تحويل هجرتنا من مجرد ممارسة حق إلى أداء واجب؛ لتحول هذه الفرصة التاريخية على منصة انطلاق إلى ميلاد جديد للأمة الإسلامية؟

إنَّ الهجرة أعظم حدث في تاريخ الإسلام بعد نزول القرآن، وإنَّ الأمة الإسلامية لفي أمس الحاجة إلى استلهام الدروس من هذه الهجرة المباركة، وإنَّها لدروس كثيرة وفييرة، وإنَّها لفي القمة في النفع؛ وإننا لقادرون إن شئنا أن نجدد انطلاقتنا مع العام الهجري الجديد؛ فاللهم خذ بنواصينا إلينا أخذ الكرام عليك، واستعملنا ولا تستبدلنا.

المصادر: